

التواضع عند المؤلفين والعلماء - دراسة في التاريخ الاجتماعي ابان العصر الاسلامي -

أ.د. فاضل جابر ضاحي

كلية التربية / جامعة واسط

المقدمة

نتناول في هذا البحث موضوعاً في التاريخ الاجتماعي ، ميدانه سلوك قديم جديد وسبق ما بقيت البشرية ، ألا وهو التواضع الذي اقتصرناه على من أتصف أو صدر عنه هذا السلوك من المؤلفين والعلماء ، أما المجال الزمني للبحث ، فهو العصور الإسلامية من البعثة النبوية حتى سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وهو التاريخ الذي زالت به دولة المماليك الشراكسة في مصر وبلاد الشام على أيدي العثمانيين .

ان الباعث على الكتابة في هذا الموضوع ، هو ما لاحظناه على بعض معاصرنا من صفة التواضع ، فأحببت أن أبحث في الجذور التاريخية لهذا السلوك وأسبابه ونتائجه ومن أتصف به ، وما قالته الشريعة ، وقوال أبرز علماء الإسلام في مدح التواضع . هذا فضلاً عن وجود رغبة جامحة لدى كاتب هذه السطور نحو التأليف في مجال تخصصه .

وأني لأرجو أن يكون ثواب كتابة هذا البحث مقبولاً عند الله تعالى ، لأنه لا يخلو من نصيحة ، إذ أن ما نوره من أخبار إيجابية عن المتواضعين ، قد تشكل دافعاً لمن يقرأه نحو التحلي بهذه الصفة الحميدة وهذا السلوك الإيجابي ، وعلى أي حال ، أن ما ذكرناه في هذا البحث كان بالاعتماد على المصادر الأولية ، وليس لنا أن نتبنى المعلومات الواردة على علاتها ، إلا إذا ثبت ذلك بالدليل الصريح ، والعهد هنا على مدون الخبر أو ناقله لاسيما إذا كان من المعاصرين لأولئك العلماء ، أو المتصفين بالتواضع ، هذا فضلاً عما طرحناه بين ثناياه من آراء ووجهات نظر خاصة ومعلومات عن مشاهداتنا ومعاصرتنا للمتواضعين وبعض ، وقد قسمناه على مبحثين لمقتضيات المادة المتوفرة .

لقد اعتمدنا من أجل الحصول على المعلومات الكافية لبناء هيكل الدراسة على عشرات المصادر الأولية في التاريخ والتراجم والحديث والفقهاء والأدب واللغة ، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم الذي تضمن العديد من الآيات الحاثية على التواضع والمحذرة من سلوك التكبر ، فضلاً عن كتب الحديث النبوي الشريف التي زدتنا بمعلومات دسمة حول أحاديث الرسول (ﷺ) عن هاتين الصفتين .

أما كتب اللغة فاعتمدنا على أبرزها في تحديد معنى المصطلح ومرادفاته ، وكانت المعلومات المستقاة منها دقيقة وتفصيلية ، لاسيما كتاب لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) ، فضلاً عن بعض المراجع الثانوية ، والذي نريد أن نسجله هنا أن بعض المصادر اهتمت بوضوح بتسجيل أخبار المتواضعين ، مثل كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) لمؤلفه شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) وقد أشدنا به في أكثر من موضع بين صفحات الكتاب ، حيث تفرد في هذه الخاصية عن معاصريه أو سابقية أو لاحقيه من مؤلفي التراجم ، إذ لا نجد هذا الاهتمام عند ابن حجر (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) ، لكن نجد عند ذات المؤلف في كتابه الآخر (فتح الباري) ، بيد أن هذا الاهتمام لا يقترب مما سجله السخاوي في كتابه المذكور ، وكذلك الحال بالنسبة لمؤرخ المماليك ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) الذي لم يهتم كثيراً في كتابه (المنهل الصافي) بتسجيل أخبار المتواضعين ، في حين جاءت مشاركته في هذا المجال متواضعة في كتابه الآخر (النجوم الزاهرة) .

ان كثافة المعلومات حول موضوع الدراسة التي دونها السخاوي ، وجرأته في طرح آرائه ، وتقييماته لأشخاص عاصروهم من مختلف الطبقات ، ولا سيما الطبقة الحاكمة ، يدفعنا للقول أنه فارس هذا الميدان لا يدانيه أحد من معاصريه أو غيرهم .

أما الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ، فيأتي حسب ما أطلعنا عليه في المرتبة الثانية بعد السخاوي ، من حيث الاهتمام بأخبار التواضع ورجاله ، فضلاً عن طرحه لآرائه ونقده للمتكبرين ومدحه للمتواضعين لاسيما في كتابيه (تاريخ الإسلام) و (سير أعلام النبلاء) ، ويأتي الصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) بالمرتبة الثالثة بعد هذين المؤرخين من حيث حجم المعلومات التي قدمها عن الموضوع ، وذلك في كتابه الشهير (الوافي بالوفيات) .

وأخيراً أرجو أن يحظى هذا الجهد بالقبول والإقبال لدى من يطلع عليه ، ولا ندعي أن هذه الدراسة متكاملة الأركان ، بل نتمنى أن تكون إضافة متواضعة لدراسات مماثلة في إطار التاريخ الاجتماعي ... ومن الله التوفيق

المبحث الأول : التواضع في اللغة والقرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الأئمة

ان التواضع ضد الكبر، وهو انكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزية على الغير وتلزمه أفعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر^(١)، وقال أحد الباحثين: "أن التواضع هو حد وسط بين التكبر والتحقير"^(٢) وقال آخر: "التواضع سلم الشرف"^(٣) ، ونقول: ان التواضع هو في القول والفعل ، أما في القول: فالمتواضع لا نجده يستعمل ألفاظ تفخيم الذات ومدح النفس أو عبارات تحقير الناس والحط من شأنهم أو إذلالهم والانتقاص من مكانتهم بل نجد في لسانه حلاوة وطراوة لا يتفوه إلا بالعبارات المحببة لنفس المتلقي، وأما في الفعل، فهو سلوك عام جبل عليه المتواضع في حركاته وسكناته في قيامه وجلوسه وسيره وهذا السلوك العام يدل بوضوح على أن صاحبه لا يتعالى على الآخرين سواء أكانوا صغاراً أم كباراً ، نساءً أم رجالاً .

قال المناوي، أن القصد بالتواضع هو خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين والتواضع الذي يعود على الدين بالنقص ليس بمطلوب^(٤)، وقيل: "طوبى لمن تواضع في غير منقصة" وأن الإفراط في التواضع يورث الذلة^(٥)، والفرق بين التواضع والضعفة هو أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دونما تستحقه منزلته، والضعفة، وضع الإنسان نفسه في محل يُزرى به^(٦)، وهناك من أختصر تعريف التواضع بسلوك المتواضع مع الآخرين، حيث سئل ابن المبارك^(٧) عن التواضع ما هو فقال: "هو التكبر على الأغنياء"^(٨) وهو تعريف منقوص قطعاً، لأنه يتطلب من المتواضع وفقاً لهذا المنظور أن يتتبع الأغنياء ليتكبر عليهم، ثم من قال أن جميع الأغنياء يستحقون التكبر عليهم إلا يوجد بينهم من المتواضعين، كان على ابن المبارك أن يقول أن التكبر على المتكبرين هو نوع من أنواع التواضع لا التواضع كله .

ومن التعاريف التوضيحية لمفهوم التواضع ما ورد عن الرسول (ﷺ) قال: "رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد على من سلم عليك وان ترضى بالدون من المجلس ولا تحب المدحة والتزكية"^(٩) . وحاول بعض المؤلفين توصيف طباع المتواضع وسلوكياته حيث قال الأصفهاني: "التواضع قد يطلق على الصفة النفسانية التي هي ضد التكبر، وقد يطلق على آثارها الناشئة عنها كإجلال المشايخ ، والجلوس مع المساكين وإجابة دعوتهم والابتداء بالسلام ونحوها"^(١٠) .ومن مرادفات مصطلح التواضع، التذلل، فتذلل فلان أي تواضع^(١١)، ومنها الخبت، فأخبت الرجل أي تواضع والإخبات هو الخشوع والتواضع^(١٢)، ومنها اللين فلن له أي تواضع له^(١٣)، ومنها التضرع، فتضرع فلان لفلان أي تواضع له^(١٤) .

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية الكريمة الدالة على التواضع والحائفة عليه، منها قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(١٥)، وفسر أحد الباحثين هذه الآية بأن المراد بالعلو هنا التعالي والتعاضم والتسلط على الناس بغير وجه حق، والفساد هو الحرمان، والفسق والفجور، والمعنى أن من تعالي وتعاضم

على الناس أو اعتدى على شيء من حقوقهم، فقد حرم الله عليه الجنة^(١٦)، وقوله تعالى ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾^(١٧)، وقوله تعالى في الحث على بر الوالدين ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾^(١٨)، أما الأحاديث النبوية الشريفة، فقد أوردت المصادر الحديثة وغيرها العديد من الأحاديث المشجعة على التواضع والحائثة عليه، منها قول الرسول الكريم (ﷺ): "أفضل العبادات التواضع"^(١٩)، وقال (ﷺ): "ما تواضع احد لله إلا رفعه الله"^(٢٠)، وقال أيضاً: "مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع"^(٢١)، وقال الرسول (ﷺ): "أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله تعالى وقلة الشيء"^(٢٢)، وقال (ﷺ): "إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة يدفع به الكبر عن نفسه"^(٢٣)، وقال (ﷺ): "من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر خفضه الله"^(٢٤)، وقوله (ﷺ): "إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله"^(٢٥)، ومن أقوال الإمام علي (عليه السلام) في التواضع: "ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه (أي تكبر) الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله"^(٢٦) وقال عليه السلام: "لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله"^(٢٧)، وقال جعفر الصادق (عليه السلام): "التواضع مع البخل أحسن من السخاء مع التكبر"^(٢٨) وقال (عليه السلام): "ما تكبر إلا وضيع، ما تواضع إلا رفيع"^(٢٩)، وقال (عليه السلام): "التواضع مع الرفعة كالعفو عند المقدرة"^(٣٠)، وقال الإمام علي (عليه السلام): "لا حسب أعظم من التواضع، ولا وحدة أوحش من العجب"^(٣١).

ويروى أن عمر بن عبد العزيز زاره ضيفاً في ليلة من الليالي، فكاد السراج ان ينطفئ، فأراد الضيف أن يصلحه، فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال الضيف، فالغلام يصلحه فرفض عمر لأن الغلام نائم، فقام بنفسه وأصلح السراج وملاه زيتاً، فقال الضيف فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين! فقال ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء. وخير الناس من كان متواضعا عند الله تعالى^(٣٢)، وقال أحد الأدباء في التواضع

كم جاهل متواضع	ستر التواضع جهله
ومميز في علمه	هدم التكبر فضله
فالكبر عيب للفتى	أبدأ يقبح فعله ^(٣٣)

المبحث الثاني: المؤلفون والعلماء المتواضعون

يجب على العالم أن يتواضع كلما ازداد علماً وتقدم في مجال المعرفة، فالتواضع مع العلم يشكّلان ثنائياً رائعاً، وقد عاصرنا أساتذتنا الذين تتلمذنا على أيديهم في بغداد أبان ثمانينات القرن العشرين أغلبهم كانوا من المتواضعين، نذكر منهم الدكتور كمال مظهر أحمد المتخصص في التاريخ الحديث والمعاصر، ولا سيما تاريخ إيران والدكتور صالح العابد رحمه الله، الذي درسنا على يديه تاريخ الخليج العربي، كان ودوداً متواضعاً محباً للمساعدة.

أما الدكتور كمال مظهر أحمد فتواضعه وقربه من طلبته وحبه لمساعدتهم وإيوائهم في منزله وتزويدهم بالمصادر البحثية مشهور ومتواتر، ومنهم الدكتورة عالية أحمد سوسة - رحمها الله تعالى - التي درسنا عليها مادة تاريخ فلسطين في المرحلة الرابعة، تنتمي الى عائلة ثرية والداها المؤرخ والمهندس المشهور أحمد سوسة، كانت تسكن حيا راقيا في العاصمة بغداد، كانت ألطف من النسمة، محببة الى نفوس طلبتها، متواضعة للغاية محبة للمساعدة، تقاعدت مبكراً عن التدريس لمشاكسات بعض الطارئيين على العمل الأكاديمي ضدها للأسف الشديد، هؤلاء الأساتذة الثلاثة مثال بسيط على رقي العلاقات الاجتماعية عندهم والتزامهم بالمثل والقيم الأكاديمية، فرحم الله من توفاه الأجل وأمد الله بعمر من لم يزل حياً منهم.

قال أحد الباحثين: "ان التواضع من شيم العلماء البارزة التي تدل على علو كعبهم في العلم، ورجاحة عقولهم، وتماسك شخصيتهم فالعالم الكثير العلم كثير التواضع لا يعرف الافتخار، ولا الدعوى ولا الدعاية، إنما هي سبيل من قل

حظه في العلم ، وفقد التماسك في شخصيته ، فلا يجد ما يدلي به إلا التبحر ودعوى العندية الزائفة وتشامخ الغرور الكاذب " (٣٤) . وعند النظر في هذا القول نجده صحيحاً إلى حد بعيد ، فأغلب حملة العلم الأفاذاذ يميلون إلى سلوك التواضع ، وأغلب حملة الشهادات الذين ليس لهم من العلم إلا القليل، نجدهم يتشدقون مدعين الأعلمية، والميل لصنع شخصية إعلامية، والعمل من أجل الحصول على المناصب بشتى الطرق لتغطية عجزهم العلمي . فما أجمل العالم المتواضع المحبب للنفوس، أما المتعالم أو الدعي فتجد النفوس منه نافرة ، وان سكتوا عن التصريح أمامه خوفاً أو مجاملة أو خجلاً ، فأنهم يبوحون بذلك صراحة بعيداً عنه .

ونأتى الآن على ذكر المؤلفين والعلماء المتواضعين، فالأولى أن يسمع ويقراً أخبارهم النشء الجديد عليهم يتأثرون بسيرهم ويسلكون سلوكهم، فمن بين المؤلفين اللامعين في القرن الثاني الهجري، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ/ ٧٩١م)، الذي يعد أشهر من نار على علم في اللغة والنحو، صاحب كتاب (العين) الشهير وصف بأنه كان رأساً في لغة العرب، قانعاً، متواضعاً، كبير الشأن، أشهر علماء عصره في العروض ومع ذلك سلك سلوك التقشف والتعبد والتواضع (٣٥)، أرسل إليه أحد الأمراء يستدعيه لتعليم ابنه بالنهار ومناذمته بالليل، وبعث إليه مع الرسول ألف دينار ليستعين بها على حاله وكان فقيراً جداً، فأخرج الى الرسول زنببلاً فيه كسر خبز يابسة، قائلاً له: ما دمت أجد هذه الكسر فأني لست بحاجة إليه أو الى غيره راداً المبلغ الكبير الى ذلك الأمير وكتب إليه الأبيات الآتية :

أبلغ سليمان أي عنه في سعة وفي غنى غير أي لست ذا مال
سخي بنفسي أي لا أرى أحدا يموت هزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال (٣٦)

وقال نصر بن علي الجهضمي الراوية المحدث (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) كان الفراهيدي من أزهد الناس وأشدهم تعقفاً، وكان الأمراء والملوك يتعرضون له لينال منهم فلم يكن يفعل ذلك، وكان يعيش من بستان ورثه عن أبيه (٣٧) ونقل ابن الجوزي أيضاً عن النظر بن شميل المحدث (ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م) أنه قال: "ما رأينا أحداً أقبل الناس إلى علمه فطلبوا ما عنده أشد تواضعاً من الخليل" (٣٨) وهكذا فقد كان الفراهيدي أوجد عصره في مجال علم اللغة والعروض يُطلب ولا يُطلب، متواضع مع غزارة علمه، عفيف مع شدة فقره، وهذه صفات قلما تجتمع في شخصية عالم بهذا المستوى .

ويعد اللغوي محمد بن القاسم بن محمد الأنباري (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) من أعلم الناس في النحو والأدب ، وأكثرهم حفظاً ، ضربت في حفظه الأمثال ، صنف كتباً كثيرة في علوم القرآن والحديث الشريف والنحو والأدب وغيرها . وكان مع علمه الواسع وحفظه الكبير ومؤلفاته العديدة، زاهداً متواضعاً (٣٩)، كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم (٤٠)، وعلى الرغم من المبالغة في هذا الرقم الذي دونه ابن ابي يعلى لعدد الأبيات التي حفظها ابن الأنباري ، لكنها تعكس لنا اشتهاه مقدرته في الحفظ ، ومن مؤلفاته : الزاهر في معاني الكلام، والأمثال ، وشروح شعر الأعشى والنايعة وزهير، وكتاب الهاءات، وكتاب الموضح في النحو وغيرها (٤١) .

ومن اللافت للنظر حين الاطلاع على سير المؤلفين المتواضعين أن أغلب هؤلاء كانوا من الأسخياء، يميلون الى مساعدة الآخرين وبذل الأموال في أوجه الخير والإحسان . ومن هؤلاء المحدث محمد بن عيسى بن عبد العزيز بن الصياح الهمداني الصوفي (ت ٤٣١هـ / ١٠٣٩م) وصفه الذهبي بكونه الرئيس الأوحد شيخ همدان الإمام المحدث (٤٢)، ونقل عن شيرويه (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م) في تاريخه أنه قال واصفاً الهمداني بقوله : "وَكَانَ مُتَوَاضِعاً رَحِيماً...وَوَقَفَ الضِّيَاعَ وَالْحَوَانِيَتَ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالاً لَا تُحْصَى عَلَى وُجُوهِ الْبِرِّ" (٤٣) .

ومن علماء الأندلس المتواضعين محمد بن عتاب بن محسن (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) الإمام العلامة المحدث مفتي قرطبة الأندلسي^(٤٤)، كان ورعاً متفناً في العلم حافظاً للأخبار والأشعار والأمثال، مبتعداً عن أصحاب السلطة متواضعاً مقتصداً في ملبسه، يتولى أعماله وحوائجه بنفسه، طلب للقضاء في قرطبة مراراً فرفض^(٤٥).

ومن العلماء المتواضعين الكرماء عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد السهروردي المتصوف (ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) ولد بسهرورد^(٤٦) وقدم بغداد ودرس الفقه والعربية والحديث كان له قبول عظيم عند عامة الناس وخاصتهم وقصده المريديون وصار له أصحاب وأتباع كثيرون وأنفذ رسولاً من قبل الخلافة الى الشام والى خوارزم شاه وكان عنده حضور وحرمة وجاه عند الملوك والأمراء، ووعظ في بغداد وكان تام المروءة كبير النفس، ليس للمال عنده قدر ولو حصل له ألوف كثيرة ينفقها ولا يدخرها، ومات ولم يخلف شيئاً من أسباب الدنيا، ومع هذا كله كان متواضعاً خلوفاً، له كتاب في التصوف عنوانه "معاني المعاني"^(٤٧)، ومن البديهي أن شخصاً بهذه الدرجة من الكرم لا يخلف مالاً أو عقاراً.

والملاحظة التي يجب أن تسجل في موضوع العلماء المتواضعين أن الزهاد منهم لازمهم صفة التواضع والكرم، ويتعبير آخر أن الزهد والتواضع صفتان متلازمتان يضاف لهما أحياناً الكرم، على الرغم من ضيق ذات اليد عند قسم منهم، ومن هؤلاء العلماء الشيخ إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي المشهور باسم أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) استوطن بغداد ودرس فيها حتى أصبح يضرب بفصاحته المثل، صنف كتباً عديدة مثل: المهذب، التنبيه، النكت، اللمع، التبصرة، المعونة، طبقات الفقهاء وغيرها^(٤٨)، قال ابن الجوزي: "وكان طلق الوجه، دائم البشر، مليح المحاور، يحكى الحكايات الحسنة، وينشد الأشعار المليحة"^(٤٩)، قال الذهبي: "جاءته الدنيا صاغرة، فأبأها، واقتصر على خُشونة العيش أيام حياته... وكان زاهداً، ورعاً، متواضعاً، ظريفاً، كريماً، جواداً، طلق الوجه، دائم البشر، مليح المحاور"^(٥٠). ونقل السبكي: "كان أبو إسحاق الشيرازي لا يملك شيئاً من الدنيا فبلغ به الفقر حتى كان لا يجد قوتا ولا ملبساً... وقيل كان إذا بقي مدة لا يأكل شيئاً جاء إلى صديق له باقلاني فكان يترد له رغيفاً ويثريه بماء الباقلاء فربما أتاه وكان قد فرغ من بيع الباقلاء فيقف أبو إسحاق ويقول: {تلك إذا كرة خاسرة}"^(٥١) فانظر الى التواضع أين وصل بهذا الشيخ فعلى الرغم من شهرته بوصفه عالماً ومؤلفاً لامعاً لكنه لم يستغل ذلك لأغراض شخصية ومصالح دنيوية.

ومن مؤلفي الأندلس المشاهير المتواضعين، العلامة أبو بكر (ت ٥٢٠هـ/ ١٢٦٦م) الطرطوشي، محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الفهري، الأندلسي نقل الذهبي عن ابن بشكوال أن الطرطوشي: "كان إماماً، زاهداً ورعاً، دينياً متواضعاً، متقياً متقلاً من الدنيا، راضياً باليسير"^(٥٢)، ألف من الكتب: سراج الملوك، تحريم الغناء، كتاب الزهد، وبر الوالدين، والرد على اليهود^(٥٣).

ومن الملاحظ ان بعض العلماء المتواضعين، وجدوا لهم من بين تلامذتهم من أخذ على عاتقه ورداً للجميل أن يوضح مكانته ويثريه ويثني عليه ويشهر سجاياه الجميلة، والواقع أن مثل هؤلاء الطلبة هم من الأوفياء، إذ لولا وجود بذرة الخير في نفوسهم لما عملوا على تسجيل سجايا أساتذتهم الطيبة.

ومن بين هؤلاء الشيوخ المتواضعين الذين تركوا أثراً طيباً في نفوس تلامذتهم يحيى بن الحسين بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن البناء البغدادي درس على أيدي مجموعة من شيوخ بغداد (ت ٥٣١هـ/ ١١٣٦م) وصفه تلميذه ابن السمعاني (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) بأنه: "كان شيخاً صالحاً حسن السيرة، واسع الرواية. حسن الأخلاق، متودداً، متواضعاً، لطيفاً بالطلبة، مشفقاً عليهم"^(٥٤)، وقد وصل صيته الحسن إلى الأندلس، حيث أطراه أحد علمائها وهو عبد الله بن عيسى بن أبي حبيب الأندلسي قاضي اشبيلية، وأثنى عليه كثيراً ووصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق^(٥٥)، وجميع طلبته الذين تتلمذوا عليه كانوا يمدحونه ويثنون عليه^(٥٦)، والواقع أن الشيوخ كما كان يطلق عليهم في العصور الإسلامية، لم يكونوا على

مستوى واحد من المقدره العلميه والسجايا الحميده وكيفية التعامل مع زملائهم أو طلبتهم ، وهذا الأمر لازال مستمراً في زماننا فالأساتذة سواء أكانوا في الثانويات أم في الجامعات ، ليسوا على درجة واحدة من تلك الصفات ، فهناك من ترك بصمة في أذهان ونفوس طلبته، ولن ينسوه طوال أعمارهم أما لحذقه ومكانته العلمية، أو لسجاياه الطيبة أو لتعاونه معهم ، أي باختصار يكون شخصية ايجابية يفيد منه المحيطون به ، ونجد أحيانا بعض الذين يقفون على الجانب الآخر وإن كانوا قلة .

ومن مشاهير أهل اللغة البغداديين موهوب بن ابي طاهر المشهور بأبي منصور الجواليقي (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) صاحب المؤلفات اللغوية المشهورة مثل: المعرب، وشرح كتاب أدب الكاتب، وتتمه كتاب درة الغواص للحريري^(٥٧)، قال عنه تلميذه السمعاني: "كان أماماً في اللغة من مفاخر بغداد، وكان متديناً ثقة ورعا غزير الفضل وافر العقل مليح الخط كثير الضبط"^(٥٨)، وقال تلميذه ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م): "كان غزير الفضل متواضعا في ملبسه ورياسته، طويل الصمت لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق والفكر الطويل، وكثيرا ما كان يقول: لا أدري"^(٥٩) .

ومن الفقهاء المتواضعين الموفق بن علي بن ثابت بن أحمد الخرقى الثابتى (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) كان هذا الفقيه على حد قول السبكي : "فاضلا ورعا زاهدا متواضعا لم أر في أهل العلم مثله خلقا وسيرة... يَصُومُ أَكْثَرَ أَيَّامِهِ فَإِذَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ بِيْتِهِ يَزُورُهُ يَقْدَمُ إِلَيْهِ مَا حَضَرَ مِنْ مَأْكُولٍ وَيُؤَافِقُهُ وَيَأْكُلُ وَلَا يَرَى أَنَّهُ كَانَ صَائِمًا"^(٦٠)

ومن علماء نيسابور المتواضعين، وجيه بن طاهر بن محمد بن محمد بن أحمد مسند خراسان الشحامي النيسابوري (ت ٥٤١هـ / ١١٤٦م) تتلمذ على الكثير وتلامذته كثيرون أيضاً وصف بأنه كان "خير الرّجال، مُتَوَاضِعاً، مُتَوَدِّداً، أَلُوفاً، دَائِمَ الذِّكْرِ، كَثِيرَ النَّيْلَةِ، وَصَوْلًا لِلرَّجْمِ"^(٦١) وهنا يجب أن نشير الى صفة ملازمة للمتواضعين الحقيقيين تراهم يصلون رحمهم ويزورونهم .

ومن مؤلفي هراة المتواضعين المحدث عبد الرحمن بن عبد الجبار الهروي الفامي (ت ٥٤٦هـ / ١١٥٢م) صاحب كتاب (تاريخ هراة)، وهو أول من ألف في تاريخها^(٦٢)، ذكر بعض المؤرخين أنه: "كَانَ حَسَنَ السِّيَرَةِ، جَمِيلَ الطَّرِيقَةِ، دَمِثَّ الْأَخْلَاقِ، كَثِيرَ الصَّدَقَةِ وَالصِّيَامِ، دَائِمَ الذِّكْرِ، مُتَوَدِّداً مُتَوَاضِعاً، لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْحَدِيثِ وَالْأَدَبِ، يُكْرِمُ الْغُرَبَاءَ"^(٦٣)، وهذه سجية أخرى من سجايا المتواضعين تتمثل بإكرام الغريب إذ يعدونه عابر سبيل، ونادراً ما نجد عند المتكبرين مثل هذه الخصلة الحميدة .

ومن الملاحظات الأخرى على المتواضعين من المؤلفين والعلماء الذين لم يؤلفوا، أن اغلبهم كانوا من الفقراء، وهذا لا يعني عدم وجود أثرياء تواضعوا، بل وجدنا بين هؤلاء من بين المتواضعين أيضاً ومن بين المؤلفين الفقراء المتواضعين، أحمد بن الحسين اليزدي البغدادي الفقيه (ت ٥٥١هـ / ١١٥٦م) ذكره ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) في تاريخه فقال عنه: " فقيه فاضل زاهد ، حسن السيرة جميل الطريقة عزيز النفس ، سخي الطبع بما يملكه ، قانع بما هو فيه ، كثير الصوم والعبادة ، صنف تصانيف في الفقه ... وكان حسن الأخلاق دائم البشر متواضعا كثير المحفوظ..."^(٦٤)، ومن عجيب أحوال هذا المؤلف الفقيه، أن أحد تلامذته دخل عليه يوماً فوجده عريانياً متزراً بمنزراً، فاعتذر له عن ذلك، إذ كانت له عمامة وقميص يتناولان عليهما هو وأخوه ، والذي يخرج منهما يرتديهما والآخر يجلس في البيت مرتدياً ذلك المنزر، وقال مستشهداً ببيت للقاضي أبي الطيب (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم
لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل^(٦٥)

صنف الكثير من الكتب في الفقه في مختلف العلوم، إذ زادت مصنفاته عن خمسين مصنفاً^(٦٦)، كان هذا الفقيه المصنف يفضل سلوك التواضع والكفاف مع إمكانية حصوله على هبات السلاطين فيما لو أراد التقرب منهم لشهرته وعلميته المحمودة، لكنه أثر حياة التقشف الشريف على الثراء الفاحش .

ومن محدثي سجستان ومتصوفيها المتواضعين عبد الهادي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مأمون أبو عروبة السجستاني الزاهد شيخ الصوفية (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) كانت شهرته واسعة في البلدان القريبة والبعيدة، كان زاهداً ورعاً متواضعاً سريع الدمعة حسن الأخلاق عاش تسعاً وثمانين سنة وما عرف عنه عمل شائن^(٦٧) كان له رباط ينزل فيه كل من أراد من القادمين الى سجستان من العلماء والصوفية، وله وقف نصف قرية، لا يتناول منه شيء، بل جعله لنفقة الواردين على الرباط، بل مات وهو مديون^(٦٨)، والشئ الذي يجب أن يسجل ونحن ندرس موضوع العلماء المتواضعين والمتكبرين، إن القاعدة كما أشرنا لها أنفاً هي تلازم التصوف مع التواضع، فضلاً عن الكرم أحياناً، وقلماً تجد متصوفاً من المتكبرين، بل يكاد ذلك يكون معدوماً، إذ لم نعثر على مثال لهؤلاء وأعني هنا بالمتصوفة أولئك العلماء المشاهير أو المؤلفين منهم .

ومن مؤلفي بغداد المتواضعين الكرماء، علي بن الحسن بن علي الزميلي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) ألف كتاباً في الخلاف، عارفاً بالأصول واللغة والنحو، حافظ لطيف على طريقة الخطاط الشهير ابن البواب البغدادي، كان حسن الأخلاق متواضعاً سخياً محبوباً الى الناس^(٦٩)، وهناك أمثلة عديدة على المتواضعين، كانوا قريبين من الناس محبين لهم، إذ أن صفة التواضع والكرم من أهم الأمور التي تؤدي الى ميل القلوب والنفوس الى أصحابهما والعكس صحيح، إذ أن التكبر والبخل من أكثر الأمور التي تنفر النفوس عن أصحابهما .

أن دعم الفقراء لم يكن مقتصرًا على الأثرياء، إذ لدينا العديد من الأمثلة على علماء فقراء متواضعين وقفوا الى جانب الفقراء وعطفوا عليهم، وإن لم يكن ذلك الدعم مادياً فإنه سيكون معنوياً، كما هو الحال مع الفقيه المحدث طلحة بن مظهر بن غانم بن محمد العثمي البغدادي (ت ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)^(٧٠) الذي وصف عند بعض مؤرخي بغداد أنه: "كان متواضعاً لطيفاً، أدبياً في مناظراته، لا يسفه أحداً، فقيراً مجرداً، يرحم الفقراء ولا يخالط الأغنياء"^(٧١)، وهكذا نجد أن إحدى الخصال الحسنة عند المتواضعين هي عدم مصاحبة الأثرياء .

ومن علماء الحديث المتواضعين جعفر بن محمد بن جعفر بن أحمد العباسي المكي (ت ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) درس الحديث ببغداد ودمشق: "وكان عارفاً بالحديث وأسماء الرجال والتاريخ صاحب خط حسن، طيب المجالسة حسن الأخلاق، حلو المعاشرة، ظريفاً كياساً متودداً متواضعاً مع ضجر وملل وحب للمزاح"^(٧٢)، ومن العلماء الوافدين على بغداد نجم الدين عبد المنعم بن علي بن نصر بن منصور الفقيه الواعظ الحراني، رحل من حران الى بغداد لطلب العلم (ت ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) وصفه تلميذ ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ) الذي عاصره بما نصه: "وكان مليح الكلام في الوعظ رشيق الألفاظ حلو العبارة كتبنا عنه شيئاً يسيراً وكان ثقة صدوقاً متحرباً حسن الطريقة، متديناً متورعاً نزهة عفيفاً عزيز النفس مع فقر شديد، وله مصنفات حسنة وشعر جيد وكلام في الوعظ بديع، وكان حسن الأخلاق، لطيف الطبع، متواضعاً، جميل الصحبة"^(٧٣)، وورد عند الحنبلي (ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) أن سبب نزوحه من حران الى بغداد هو للخلاف والوحشة التي وقعت بينه وبين ابن تيمية خطيب حران، والمعروف ان ابن تيمية تقي الدين ولد سنة ٦٦١هـ/ ١٢٩٢م) وتوفى سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) في حين أن الحراني نجم الدين توفى سنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)، إلا إذا كان المقصود بذلك محمد بن الخضر الحراني الحنبلي فخر الدين ابن تيمية (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) الذي كان خطيب حران وواعظها، لأن مؤرخنا الحنبلي الذي أشار إلى الأشكال لم يوضح اسم ابن تيمية الذي وقع له الخلاف مع العالم والمؤلف نجم الدين ولأن شهرة اسم ابن تيمية تنصرف الى تقي الدين ابن تيمية السلفي المتشدد . وكان بإمكانه أن يميز بين الأثنين، لا سيما وأن وفاته تأخرت الى سنة (٧٩٥هـ) كما ذكرنا أعلاه .

ومن علماء النحو المتواضعين أبو الجود الإمام المحقق شيخ المقرئين غياث بن فارس بن مكي اللخمي المنذري المصري الضرير (ت ٦٠٥هـ/١٢٠٨م)، تصدر للإقراء زمناً طويلاً وكثر تلامذته وصف بأنه: "وَكَانَ دَيِّنًا، فَاضِلًا بَارِعًا فِي الْأَدَبِ، حَسَنَ الْأَدَاءِ، مُتَوَاضِعًا، كَثِيرَ الْمُرُوءَةِ، لَا يَطْلُبُ مِنْهُ قَصْدَ أَحَدٍ فِي حَاجَةٍ إِلَّا يَجِيبُ، وَرَبِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمَشْفُوعُ إِلَيْهِ وَلَمْ يَجِبْهُ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْهُ الْعُودَ إِلَيْهِ فَيَعُودُ"^(٧٤)، وهذا سلوك المتواضعين الساعين في قضاء حوائج الناس وبذل الجهد والوقت من أجل ذلك .

ومن علماء واسط المتواضعين المبارك بن المبارك بن سعيد أبي السعادات بن الدهان الواسطي الضرير (ت ٦١٢هـ/١٢١٥م) كان حاد الذهن متضلعا في علوم عدة، منها: فِي النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْعُرُوضِ وَمَعَانِي الشُّعْرِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْإِعْرَابِ وَالفقه والطب وعلم النجوم والشعر^(٧٥)، وكان يفهم ويتكلم بالتركية والفارسية والرومية والأرمنية والحبشية والهندية وَكَانَ حَلِيمًا بَطِيءَ الْعَضَبِ، مُتَوَاضِعًا طَبِيبًا، دَيِّنًا، صَالِحًا، كَثِيرَ الصَّدَقَةِ، مُتَفَقِّدًا لِلْفُقَرَاءِ وَالطُّلَبَةِ^(٧٦) .

ومن كبار علماء بيت المقدس المتواضعين موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي الفقيه (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م) صاحب كتاب المغني في شرح الخرقى، وكتاب البرهان في مسألة القرآن، وكتاب القدر ومعجم لشيوخه والرقعة في البكاء والتبیین في أنساب القرشيين^(٧٧)، كان زاهداً ورعاً كثير الحياء عازفاً عن الدنيا هيناً ليناً متواضعاً، محباً للفقراء، حسن الأخلاق كريماً^(٧٨)، ووصف أيضاً بأنه متواضع عند العامة والخاصة حسن الاعتقاد، ذو أناة ووقار^(٧٩)

ومن محدثي بيت المقدس الذين وصفوا بالتواضع والكرم الشيخ المفتي المحدث بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) درس في القدس ودمشق وبغداد ألف كتاب العمدة شرح فيه كتاب المقنع وكتاب آخر شرح فيه كتاب العمدة لموفق الدين، انتفع بعلمه الطلبة، وكان كريماً سمحاً حسن الأخلاق متواضعاً مطرحاً للتكلف، كثير الفائدة قوياً للحق، ذا دين وخير، يطعم من يقرأ عليه^(٨٠) .

وهذا عالم مقدسي آخر اتصف بالتواضع بين أقرانه وأترابه ذلكم هو الحافظ المحدث جمال الدين عبد الله بن الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي الجماعيلي المقدسي الدمشقي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)^(٨١)، صنف الكتب، ودرس في بغداد وفي الشام، وروي أنه لم يكن في عصره في الحفظ والأمانة، وافر العقل كثير الفضل متواضعاً مهيباً وقوراً جواداً سخياً، أنتفع الناس بعلمه، ساعياً في مصالحهم يقرض الأموال وبعضهم لا يوفيه دينه، لكنهم أخذوا عليه ميله في أواخر عمره للسلطة^(٨٢)، والواقع أن الذهبي وغيره من مؤرخي الشام، كانوا يرصدون كل ما يحيط بالمتروجم ويركزون على بعض القضايا القضايا التي يرونها سلبية أو إيجابية، ومن تلك السلبيات تزلف بعض العلماء لذوي السلطان، ودافع الحنبلي عنه ضد هذه التهمة التي جاءت أولاً على لسان سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) متهماً إياه بالميل للسلطين أيضاً منشداً قول الشاعر أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٨٨هـ/٦٩٩م)

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم^(٨٣)

ومن مؤلفي مصر في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي الموصوفين بالتواضع، الحافظ الفقيه النسابة عبد المؤمن بن خلف التونسي الدمياطي صاحب التصانيف (ت ٧٠٥هـ/١٣٠٥م) عاش معظم حياته في القرن السابع الهجري إذ ولد سنة (٦١٣هـ) بدمياط المصرية ودرس في الإسكندرية وحلب وماردين، وناف عدد شيوخه على الألف^(٨٤)، وصفت مؤلفاته بأنها كثيرة حسنة^(٨٥)، منها السراجيات الخمسة، وكتاب الخيل، وكتاب الصلاة الوسطى^(٨٦)، كان حافظاً ثقة عزيز المعرفة بالغة والفقه . رأساً في الأنساب، ديناً كيباً متواضعاً بشوشاً محبباً الى الطلبة كبير القدر عندهم^(٨٧) .

وقد تعرض بعض العلماء المتواضعين الساعين في قضاء حوائج الناس ولا سيما الطلبة منهم ، الى الأذى أحياناً بسبب وجود ما لا يرغب في تلبية طلباته ، ولدينا مثال على مثل هذه الحالات، إذ كان الشيخ المقتي محمد بن محمد بن عبد القادر أبو اليسر الدمشقي متصفاً بالتواضع زاهداً في المناصب، عرض عليه منصب قاضي القضاة وهو أحد المناصب الكبيرة فرفضه وأصر على رفضه، فمالت قلوب الناس إليه وأحبوه لتواضعه وترفعه عن المناصب، فضلاً عن أنه كان مقتصداً في لباسه وأموره الأخرى^(٨٨)، ولما زار القدس أخذ عنه المقادسة الحديث الشريف، وزادوا بأن طلبوا منه أن يشفع لهم عند ناظر الحرمين، فشفع لهم فألحوا عليه مراراً فاستنقله الناظر وشكا لنائب دمشق منه وأتهمه جزافاً أنه يتدخل في أمور العزل والتعيين، فأشاح بوجهه عنه بسبب ذلك^(٨٩) .

ومن العلماء الذين ساعدوا الطلبة، فضلاً عما ذكرناهم آنفاً محمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن سليمان البالسي الدمشقي الصالحي (ت ٨٠٣هـ/٤٠٠م)، كان يدرس القرآن ويمشي بين الطلبة، ديناً خيراً محباً للطلبة ويطعمهم ويودهم ويدلهم على المشايخ^(٩٠)، وحسن الأخلاق والتودد، والفتوة المحدث عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن زين الدين العراقي (ت ٨٠٥هـ/٤٠٢م) ألف العديد من المصنفات مثل: إخبار الأحياء بأخبار الإحياء ، والمغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، والكشف المبين عن تخريج إحياء علوم الدين وتقريب الأسانيد وترتيب المسانيد، والنجم الوجاج في نظم المنهاج، ووصفت مؤلفاته بأنها مفيدة مشهورة^(٩١)، فصل ابن فهد المكي (ت ٨٧١هـ/٤٦٦م) بذكر صفاته وسجاياه الحسنة، حيث قال: "وكان -رحمه الله تعالى- شديد التواضع لا يرى له على أحد فضلاً كثير الحياء ليس بينه وبين أحد شحنة حليماً واسع الصدر طويل الروح لا يغضب إلا لأمر عظيم ويزول في الحال، ليس عنده حقد ولا غش ولا حسد لأحد ولا يواجه أحداً بما يكره ولو آذاه وعاداه مع صدعه بالحق وقوة نفسه فيه لا يأخذه في الله لومة لائم... لا يهاب سلطاناً ولا أميراً في قول الحق وإن كان مرأياً"^(٩٢)، ومن الجدير بالإشارة، أن مثل هذه الصفات قلما نجدها مجتمعة عند أحد حتى أصبح وجودهم في زماننا كوجود الزئبق الأحمر نادرة .

ومن محدثي القاهرة المؤلفين المتواضعين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ/٤٠٤م) ، رحل الى الحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعليبك وطلب وحماه وحمص وطرابلس وغيرها ، لأجل طلب الحديث الشريف وسمع في تلك المدن على مشايخها ، حتى تمكن فألف كتباً حديثية عدة مثل : زوائد مسند أحمد، مجمع الزوائد، زوائد صحيح ابن حبان، ترتيب أحاديث حلية الأولياء، لأبي نعيم، ورتب كتاب الثقات لابن حبان وغيرها من كتب الحديث الشريف، وكان تقياً ديناً زاهداً ودوداً هيناً خيراً محباً لأهل الخير لا يسأم ولا يضجر من خدمة شيوخه وأساتذته سليم الفطرة كثير الخير محتملاً للأذى، متواضعاً محباً للطلبة الغرباء متودداً الى الناس ذا نقشف وورع .^(٩٣) وفيما يتعلق بموضوع التودد للناس والانبساط لهم، فان هذا الأمر يكسب القلوب وتميل الى صاحبه النفوس، ولذلك قال الرسول (ﷺ) : "التودد نصف العقل"^(٩٤)، وقال أيضاً (ﷺ) : "رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس ، واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر"^(٩٥)، ومن وصية الإمام علي (ﷺ) لابنه محمد بن الحنفية: "إياك والعجب ، وسوء الخلق، وقلة الصبر، فإنه لا يستقيم لك على هذه الخصال الثلاث صاحب ، ولا يزال لك عليها من الناس مجانب ، وألزم نفسك التودد ، وصبر على منونات الناس نفسك، وابدل لصديقك نفسك ومالك... وللعمامة بشرك ومحبتك..."^(٩٦)، ولو نظرنا وقارنا بين هذه الوصية وبين ما جاء من أخبار عن سلوك وصفات ذلك الشيخ لوجدنا تطبيقاً يكاد يكون حرفياً لهم . وقال الإمام علي (ﷺ) : "حسن الخلق مجلبة للمودة"^(٩٧)، أي من كانت أخلاقه حسنة مع الناس استجلب وضمن حبه لهم .

وضمن هذا الاتجاه قال الإمام علي (ﷺ) : "أول المروءة طلاقة الوجه وأخرها التودد الى الناس"^(٩٨)، ان هذا السلوك لا يؤدي صاحبه، ولا يكلفه مالاً وفوق كل ذلك يجني عبره حب الناس وقبولهم له، وعكس ذلك العبوس والنفور من الناس إذ يكون مجلبة للكره.

وقريب من هذه الصفات ما جاء عن المحدث واللغوي، محمد بن عبد الله بن ظهيره بن أحمد بن ظهيرة (ت ٨١٧هـ/٤١٤م) إذ قال السخاوي : "كَانَ إِمَامًا عَلَامَةً حَافِظًا فَصِيحًا صَالِحًا خَيْرًا وَرِعَا دِينًا مُتَوَاضِعًا سَاكِنًا مُنْجَمًا عَنِ النَّاسِ طَارِحًا لِلتَّكَلُفِ كَثِيرِ الْمُرُوءَةِ وَالْأَيْرِ وَالنَّصْحِ وَالْمَحَبَةِ لِأَصْحَابِهِ وَافِرَ الْعُقْلِ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ جَمِيلَ الصُّورَةِ...مُتَابِرًا عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعَفَافِ وَالصِّيَانَةِ وَالْأُورَادِ حَرِيصًا عَلَى تَفَرُّقَةٍ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ فِي غَالِبِ النَّاسِ" (٩٩) .

ومن المؤلفين المتواضعين أيضاً محمد بن أحمد بن موسى بن عبد الله شمس الدين العجلوني الدمشقي (ت ٨٣١هـ/٤٢١م) ألف كتاب التلويح الى معرفة الجامع الصحيح، والإقدام في أحكام المختار، واختصار كتاب الروض الأنف للسهيلي، وكتاب معين النبيه الى معرفة التنبيه، وصف بأنه: "سليم الصدر بشوش...متواضع مع الطلبة وغيرهم طارح للتكلف" (١٠٠)، ومن اتصف بمثل هذه الصفات من التواضع والسعي في مساعدة الطلبة، الفقيه محمد بن عبد القادر بن محمد السنجاري الشيرازي الواسطي المشهور باسم السكاكيني (ت ٨٣٨هـ/٤٣٤م) كان إماماً صالحاً متواضعاً حريصاً على نفع الطلبة له عدة مؤلفات منها: شرح المنهاج، وتخسيس البردة، وبانت سعاد، وله قصيدة أرخ فيها النهب الذي وقع في المدينة المنورة (١٠١) .

وبقيت إحدى سمات التواضع التقشف في الملبس، وهذا ما كان عليه علي بن عثمان بن محمد بن صالح الدمشقي المعروف بابن الصيرفي (ت ٨٤٤هـ/٤٤٠م)، الذي برع في الفقه والأصول والحديث والعربية، وصنف عدة مؤلفات منها : كتاب الأصول، ونتائج الفكر، وزاد السائرين، وشرح التنبيه وغيرها ووصف بأنه كان إماماً علامة متواضعاً متقشفاً في ملبسه متودداً الى الناس سليم الخاطر (١٠٢) .

والذي يمكن تسجيله فيما يخص مصادر معلوماتنا عن المؤلفين المتواضعين أبان القرن التاسع الهجري فأن مصدرنا الأول والأكثر تتبعاً لأخبار المتواضعين هو كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) لشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/٤٩٦م) وقد ركز هذا المؤلف على المصريين عامة وأهل القاهرة خاصة، ومن بين هؤلاء الفقيه القاهري محمد بن محمد بن علي بن حسان الموصلي الأصل القاهري الموطن المشهور بابن حسان (ت ٨٥٥هـ/٤٥١م) درس على شيوخ مصر في الحديث والفقه، ومنهم ابن حجر العسقلاني، ومن مؤلفاته : اختصار مفردات ابن البيطار، واختصار كتاب الخصال لابن حجر ، وتخريج أحاديث القونوي، ووصف بأنه كان فقيهاً محققاً للفنون فصيحاً ، قانعاً باليسير وافر العقل كثير التحري والحياء والحشمة والأدب متواضعاً بشوشاً تاركاً للفضول وذكر الناس مبتعداً عن الغيبة ، ولو أن أحداً اغتاب أحد ما بحضوره ابتسم في وجهه قائلاً استغفر الله ، محبوباً من عامة الناس ، ذكر كل ذلك السخاوي الذي رافقه في الدراسة عند ابن حجر وقال أن الأخير كان يحترمه ويحبه (١٠٣) .

ومن علماء مكة المستقرين بها المعروفين بالتواضع والكرم عبد الرحمن بن الولوي بن أبي المكارم بن أبي عبد الله الحسني الفاسي المغربي الأصل المكي الموطن (ت ٨٥٧هـ/٤٥٣م) ودرس في مكة وتفقه ، سافر الى بلاد المشرق واجتمع بالخان معين الدين شاه رخ صاحب سمرقند وبخارى (ت ٨٥١هـ/٤٤٧م) وأكرمه غاية الإكرام ، حتى أنه عاد الى مكة جالياً منه عشرون ألف دينار ، لكنه بسبب ما اشتهر به من الكرم فرقها ولم يبق عنده منها شيء خلال سنة واحدة ، ووصف بأنه شيخ خير دين محمود السيرة مفرط الكرم ، ساكناً منجماً عن الناس متودداً متواضعاً محبوباً عند العامة والخاصة (١٠٤) .

ومن اللافت للنظر إن المؤلفين والمتواضعين كانوا في الأعم الأغلب محبوبين عند الناس مقر بين من نفوسهم، وهناك أدلة كثيرة على هذه الملاحظة سواء فيما ذكرناه آنفاً أو ما سيأتي ومن بين هؤلاء الفقيه الدمشقي عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الصالحي الدمشقي (ت ٨٥٦هـ/٤٥٢م) صاحب كتاب الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفتح الإغلاق في مكارم الأخلاق ومواقع الأنوار، ومآثر المختار، والإنذار بوفاة المصطفى المختار، وتحفة العباد، وأدلة

الأوراد، ونزهة النفوس، والأفكار في خواص الحيوانات والنبات والأحجار ، وتسلية الواجم في الطاعون الهاجم^(١٠٥)، وعند النظر في مؤلفاته نجد أن اثنين منها يدلان على حسن أخلاقه وتواضعه وكان من الطبيعي أن ينتج مثلهما وهما كتاب مكارم الأخلاق وكتاب الكنز الأكبر الذي يحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ وصف من قبل تلميذه السخاوي: "تأم العقل والتدبير حسن الخط، دأ جلاله ووقع في النفوس وشهرة عند الخاص والعام وله الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر راغياً في مساعدة الناس، كريماً متواضعاً"^(١٠٦).

والملاحظة الأخرى التي يمكن تسجيلها على المؤلفين والعلماء المتواضعين أن أغلبهم من الزاهدين في المناصب، المبتعدين عن أصحاب السلطة، وهذا في الواقع ينسجم مع تواضعهم وتحريمهم للحلال والحرام في سلوكهم اليومي، ومن هؤلاء محمد بن محمد بن علي النويري (ت ٨٥٧هـ/٤٥٣م) دأب في التحصيل حتى خاف أقرانه في الفقه والحديث والنحو والصرف والعروض والمنطق والحساب والفلك والقراءات، وقد ألف في معظم هذه العلوم ، منها: كتاب بغية الراغب على ابن الحاجب، وكتاب التوضيح على التنقيح، وأرجوزة في الصرف والنحو والعروض في خمسمائة بيت، وشرح ألفية ابن مالك وكتاب الغياث في القراءات، وقصيدة في علم الفلك، وكتاب القول الجاذ لمن قرأ الشاذ، وصف بأنه كان إماماً عالمًا علامة مفننا فصيحاً مفوهاً باحثاً ذكياً أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ديناً شهماً مترفعاً عن أهل الدنيا ، مغلظاً لهم في القول ، متواضعاً مع الطلبة والفقراء ، باذلاً جاهه لمن قصده ، دأ كرم بالمال والإطعام ، ينكسب بالتجارة مستغنياً بذلك عن الوظائف ، عرض عليه قضاء المقدس فرفضه ، وأراد السلطان المملوكي جقمق (٨٤٢-٨٣٨هـ / ١٤٥٣م) أن يجعل له في كل يوم ديناراً فرفض قائلاً بأن هذا السلطان يروم استعبادي بهذه الدنانير، بنى مدرسة وأوقف عليها ما يملكه^(١٠٧).

ومن الأطباء المتواضعين الذين صنفوا في الطب وغيره، أحمد بن أبي الغيث بن علي بن حسن القرشي المخزومي الكمراني ، اليماني (ت ٨٥٧هـ/٤٥٣م) ، برع في الطب والنحو، وألف فيهما ، ففي النحو صنف مقدمتان، وفي الطب كتاب كبيره، وفضلاً عن ذلك كان من المتبحرين في الفقه حتى أصبح مفتياً مشهوراً في بلاده اليمن، وبسبب تواضعه كان للناس ميل إليه وإقبال لحسن أخلاقه^(١٠٨).

ومن علماء اليمن ومؤلفيه المتواضعين أيضاً علي بن ابراهيم بن علي بن راشد الموفق أبو الحسن اليماني المكي المعروف بالأبي (ت ٨٥٩هـ/٤٥٥م) الأديب البارع ، كتب بخطه الحسن الكثير ودرس عليه السخاوي في جده ومكة، ووصفه بأنه كان أمماً أديباً بارعاً متواضعاً حسن الهيئة ، جميل الصورة ، والعشرة كثير الفكاهة والنادرة ، حسن التودد^(١٠٩). أما الفقيه القاهري عمر بن عيسى بن أبي بكر بن عيسى السراج الأزهري (ت ٨٦١هـ/٤٥٦م) فقد كان : "كان عالماً مفننا متواضعاً ورعاً خاشعاً ناسكاً قانئاً محباً للعلماء والصلحاء خصوصاً أهل البيت النبوي كثير البِر والصدق والشفقة على الأيتام والأرامل مع الحلم والصبر والاحتمال لجفاء المجاورين ... كتب بخطه الكثير بحيث كانت معظم كتبه بخطه"^(١١٠).

وثمة ما يلفت النظر أيضاً فيما يتعلق بالعلماء المتواضعين، إذ أننا نقرأ في سير بعضهم التزامهم ببر الوالدين، اشتغالهم بين الناس في هذا الأمر، والواقع أن الإنسان إذا كان متواضعاً حقيقة، فإن بر الوالدين عنده تحصيل حاصل يلتزم به، وقد نجد عكس ذلك عند المتكبرين، إذ قد يكون بعضهم عاقاً لوالديه، ومن أمثلة البارين المتواضعين علي بن محمد بن أقبرس العلاء القاهري المعروف بابن أقبرس (٨٦٢هـ/٤٥٧م) الذي مهر بالأدب والحديث والفقه، عرف بالتواضع مع أصحابه وبر بأمه ألف شرحاً على كتاب الشفا وشرحاً على أربعين النووي^(١١١).

وقد أشرنا سابقاً الى أن من علامات التواضع عند الفقهاء رفضهم للمناصب الكبيرة، كالقضاء مثلاً، إذ كثيراً ما نجد أولئك الذين اتصفوا بالتواضع، امتنعوا عن تولي المناصب التي عرضت عليهم ورفض المناصب موضوع بحاجة الى دراسة منفردة ، ومن هؤلاء محمد بن محمد بن عبد الرحمن القاهري، المعروف بابن أمام الكاملية (ت ٨٦٤هـ/٤٥٩م) صنف شرحاً

لكتاب البيضاوي وقد اشتهر هذا الكتاب وتلاقفته أيدي القراء في حياته، وشرح كتاب العمدة للبرماوي، وكتاب في الخصائص النبوية، وكتاب طبقات الأشاعرة، وكتاب عن حياة الخضر، ومختصراً في الفقه، وقد ألف السخاوي كتيباً صغيراً عن حياة هذا الفقيه ففرح به وأشتهر بسببه وزاد السخاوي بأن وصفه على النحو الآتي: "وكان إماماً علامة حسن التصور جيد الإدراك زائد الرغبة في لقاء من ينسب إلى الصلاح، والنفرة ممن يفهم عنه التخبط وربما عودي بسبب ذلك، متواضعاً متشفهاً طارحاً للتكلف بعيداً عن الملق والمداهنة، ذا أحوال صالحة... تآم العقل خبيراً بالأمر قليل المخالطة لأرباب المناصب مع إجلالهم له خلو اللسان محبباً للأنفس الزكية من الخاصة والعامة... كثير البر منها لكثير من الفقراء. والطلبة..."^(١١٢).

وقد يؤدي التواضع والتودد والصلاح الذي جبل عليه عالم من العلماء وفقهه من الفقهاء، إلى أن يقوم بمعارضة إجراء مشكوك فيه ضد شخص غير مسلم، إذ كان أبو الجود داود بن سليمان بن حسن بن عبيد الله القاهري (ت ٨٦٣هـ/٤٥٨م) من الفقهاء المعروفين في القاهرة خلال القرن التاسع الهجري، له مؤلفات فقهية عدة منها: مجالس الإفادة، شرح الرسالة القيروانية^(١١٣)، ووصف بأنه كان خيراً ديناً ثقة مأموناً متواضعاً متودداً كريماً مشاراً إليه بالصلاح، وهذه الصفات هي التي وقعت وأثرت في إصداره فتياً بعدم جواز قتل سعد الدين بن كير القبطي على الرغم من إصدار قاضي المالكية والحنابلة فتوى بجواز قتله.

ومن الجدير بالذكر أن اعتناء شمس الدين السخاوي وتتبعه لأخبار وأحوال أصحاب تراجمه في كتابه الضوء اللامع، هو مقدم عنده على التفصيل بسلسلة النسب أو ذكر آباء وأجداد المترجم، فأحياناً يذكر الاسم مختصراً، لكنه يهتم بوضوح بذكر النسبة سواء أكانت للمهنة أو المدينة أو المذهب أو غير ذلك، والاهتمام الكبير الآخر كان بذكر أخلاقيات المترجم سلبية كانت أم ايجابية، إذ لم يكن السخاوي يخشى أمراً حينما سجل تلك الصفات والسجايا، ويمكن القول بلا تردد أنه أكثر مؤرخي عصر المماليك جرأة في هذا الميدان، ولا نعرف على وجه الدقة ما أسباب وعوامل قوة موقفه وعدم خشيته من ذكر السلبات التي لا يقبل بها أحد، سواء أكان المترجم نفسه أم أتباعه وأقاربه، وهذا الأمر بحاجة إلى بحث وتقصي نضعه بين أيدي الباحثين الآخرين الذين يطلعون على كتابنا المتواضع هذا، علماً أن السخاوي دون في كتابه المذكور - الضوء اللامع - أخبار وتراجم أشخاص عاشوا في القرن التاسع الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه هو أيضاً، مما يعني أن قسماً غير قليل منهم قد عاصرهم وعاش بقربهم أو زاملهم أو درس عليهم وهو أمر في غاية الدقة والحذر أن يقوم مؤرخ يعد آنذاك لسان حال الآلة الإعلامية إلى جانب الشاعر، فيؤرخ ويدون أخبار قد تضرر بسمعة أصحابها أو أسرهم، ومن يطلع على كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع باختيار تراجم عشوائية سيتبين له مصداق كلامنا هذا.

وقد درس أحد طلبة الدكتوراه الذين أشرفت عليهم موضوع "النقد التاريخي عند مؤرخي التراجم المصريين في القرن التاسع الهجري" كان السخاوي في كتابه المذكور أهم مصادر تلك الدراسة، لأن النقد التاريخي له جانبان سلبي وإيجابي وقد فصل ذلك الطالب بكل الجانبيين، ولا نجد بين مؤرخي التراجم أو التاريخ العام في العصر المملوكي في مصر من يقترب من جرأة السخاوي في ذلك، أما إذا نظرنا في مؤلفات المؤرخين الشاميين لنفس العصر، فإنه حتى الذهبي على الرغم من تشدده وتفصيله لا سيما في كتابه سير أعلام النبلاء بذكر خصال وسجايا المترجمين لكنه لا يقترب من جرأة وخطورة ما ذكره السخاوي في كتابه - الضوء - لأن الذهبي كتب عن شخصيات معظمهم ماتوا قبل عصره، كما أن المنطلق الأساس عند للنقد السلبي هو المنطلق المذهبي، إذ يكيل الذم والسباب لمن خالفه في ذلك، ومن يريد التوسع في المعلومات حول منهج الذهبي في النقد التاريخي، فعليه الرجوع إلى أطروحة الدكتوراه الرائعة للطالب شمخي يابر عويد التي درس فيها تحت إشرافي النقد التاريخي عند مؤلفي التاريخ العام الشاميين في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي.

وبالعودة الى السخاوي وتراجمه نجده يذكر علي نور الدين السفطي ولم يزد في اسمه على ذلك، ولم نجد له ترجمة في المصادر الأخرى - وزاد بأن دون نسبه فقال : القاهري الأزهرى المالكي المعروف بالوراق وذكر فيما بعد أن اسم والده حجاج، وأشار الى أنه حفظ القرآن وعلم الفرائض والحديث الشريف، وبعد أن تمكن من هذه العلوم تصدى لتدريس الطلبة في الفقه وأصول العربية^(١١٤)، ثم وصفه السخاوي بقوله : "كَانَ إِنْسَانًا خَيْرًا متواضعا قانعا منجمعا متوددا محبا في الفضلاء"^(١١٥)، وقال انه ألف كتاباً في الحساب لكنه يذكر عنوانه ، وأشار الى أنه لم يكن ذكياً^(١١٦) .

ومن شيوخ السخاوي الذين ترجم لهم وأثنى عليهم لتواضعهم وحبهم لمساعدة الطلبة المحدث الفقيه، حسن بن محمد بن أيوب بن محمد بن حصن النسابة الحسيني القاهري المعروف بالشريف النسابة (ت ٨٦٦هـ/٤٦١م) ألف كتاب شرح الأبريز فيما يقدم على مؤن التجهيز ، وكتاب نزهة القصاد في شرح منظومة العقاد^(١١٧)، ووصفه تلميذه السخاوي بقوله : " كَانَ قَوِيهَا فَاضِلًا دِينًا متواضعا سليم الصُّدْر نير الشيبية حسن الأبهة كثير التودد للخاص وَالْعَام محبا في الْعِلْم ومذاكرته وإثارته الْفَوَائِد فِيهِ رَاغِبًا فِي الْإِسْتِعْالِ ونفع الطُّلَبَةَ وترغيبهم فِي الْإِسْتِعْالِ لَا تَكَادُ مُجَالَسَتُهُ تَخْلُو من فَوَائِد ونوادير..."^(١١٨) .

وقد يلاحظ القارئ الكريم أن المصدر الأساس لمعلوماتنا عن المؤلفين والعلماء المتواضعين هو السخاوي، وقد نوهنا الى ذلك سابقاً و ذكرنا أنه الأكثر كتابة وتسجيلاً لأخبار هذه الصفة عند أولئك المؤلفين ، وعلى الرغم من وجود مؤلفات أخرى معاصرة للسخاوي ككتاب المنهل الصافي في المستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/٤٥٩م)، وكتاب عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران للمؤرخ البقاعي (ت ٨٨٥هـ/٤٨٠م) لكنهما لم يسجلا تلك الخصال إلا ماندر . ولذلك بقي المصدر الأساس عن هذه الفترة هو كتاب الضوء اللامع ، ولا سيما أولئك الذين عاصرهم السخاوي ، فمن المؤلفين الذين عاصرهم وعایشهم السخاوي وسجل سجايهم الحسنة ومنها التواضع ، عبد الله بن علي بن يوسف بن علي بن محمد بن البدر الدمشقي ثم القاهري المعروف بابن أيوب (ت ٨٦٨هـ/٤٦٣م) درس الفقه والحديث ، وألف كتاب سماه دواء النفس من النكس، وهو في الطب ، اطلع عليها طاهر بن يونس الموصلي سنة (٨٣٥هـ/٤٣١م) ومدحه في ثلاث أبيات^(١١٩) ، وقد التقى به السخاوي غير مرة وخبره عن قرب وكانت بينهما مذكرات ووصفه بقوله : "كَانَ إِنْسَانًا حَسَنًا فَاضِلًا ثَقَّةً رَئِيسًا متواضعا كَرِيمًا بارًا بِأَصْحَابِهِ عَفِيفًا قَانِعًا متجملا في ملبسه بهيا وقورا نير الشيبية طلقا...حسن العُشْرَةَ مشاركا في الْفَضَائِلِ تَارِكًا الْخَوْضَ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ"^(١٢٠) .

وهذه الخصلة الأخير وهي ترك الشخص للتدخل فيما لا يعنيه لازالت إشكالية في زماننا ، فثمة الكثير من الناس يتدخلون في حياة الآخرين المعيشية والاجتماعية ، سواء بحضورهم أو في غيابهم ، حتى أصبح هذا الحديث عند بعض الناس متعة بل وبعضهم يسميه (ملح الكعدة)، أي ملح الجلسة ، ولا يردع هؤلاء القلة لا رادع أخلاقي ولا ديني . نسأل الله أن يجنبنا مثل هذه الأحاديث ، لأنها أولاً تدخل في باب الغيبة ، وثانياً تعد تدخلا في الشؤون الخاصة للناس ، وما لا ترضاه لنفسك يجب أن لا ترضاه لغيرك .

ومن المؤلفين المصريين المتواضعين أيضاً عبد الدائم بن علي زين الدين أبو محمد الحديدي ثم القاهري الأزهرى (ت ٨٧٠هـ/٤٦٥م) درس علوم القرآن والحديث وشرح منظومة شيخه ابن الجزري في التجويد، وشرح كتاب الطيبة له أيضاً وشرح كتاب الهداية في علوم الحديث لذات الشيخ، ووصفه السخاوي بقوله: "كَانَ فَاضِلًا خَيْرًا متواضعا طارحا للتكلف سليم الْفَطْرَةَ حَاد الْخُلُقِ سريع الانحراف قانعا. تكسب بالتعليم"^(١٢١) .

وترحم السخاوي أيضاً للمحدث القاهري عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر بن عثمان السخاوي الأصل المشهور باسم الغزولي (ت ٨٧٤هـ/٤٦٩م) درس عل شيوخ مصر البارزين وحفظ القرآن وتناول الفقه وقال عنه معاصره ومواطنه السخاوي أنه: "كَانَ فَاضِلًا حَسَنَ الْفَهْمِ خَيْرًا دِينًا صَادِقَ اللَّهْجَةِ وافيا للعهد مُؤدِّيا للأمانة متحريرا في الرِّكَائَةِ نُصُوْحًا متواضعا

وصولا لرحمه ودوي قرابته وقورا ساكنا محبا في المَعْرُوف عديم الشَّرِّ... لقيت أحدا من قدماء أصحابه كالزین قاسم الحَنَفِيِّ والسَّيِّدِ الجرواني النَّقِيبِ وَابْنِ المرخمِ إِلَّا وَيذكر عنه كل جميل وَإِنَّهُ لم يكن يَتَوَقَّفُ في إقراضهم لما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ في نَفَقَتِهِمْ وَرُبَمَا لَا يَسترجع ذلك... " (١٢٢).

ان هذه السجايا والصفات التي جمعها هذا الفقيه كتبها وسجلها معاصره السخاوي عن قرب وعن معايشة لأنها جاءت تفصيلية ودقيقة، ولا يمكن الطعن بها ، لأن السخاوي حينما سجلها لم يصدر من ذلك عن مصلحة ولا المترجم من ذوي السلطان كما أنها سجايا حسنة وليست صفات سيئة لنقول ربما جاء ذلك على خلفية تنافس أو خصام .

ونجد أن السخاوي في تتبعه لأخبار معاصريه من العلماء المتواضعين يقتنص أحيانا سجايا وصفات فضلا عن التواضع ، لا نجدها عند غيره من أصحاب كتب التراجم ، وهو إذ يذكر ذلك إنما يذكره عن دراية ومعايشة ، ومن ذلك ما قاله يحيى بن محمد بن أحمد الدمياطي القاهري (ت ٨٧٩هـ/ ٤٧٤م) الذي درس اللغة والحديث والفقه وبرع فيها وكذلك الفرائض والحساب والعروض وقد شرح ألفية العراقي ، وشرح مقدمة الحناوي وشرح كتاب تنقيح اللباب في الفقه، وذكره واصفاً إياه بما نصه : "وَبِالْجُمْلَةِ فَكَانَ خَيْرًا متواضعا حسن المُلتَقَى بشوشا متوددا طارحا للتكلف مُتَمَكِّنًا" (١٢٣) .

ومن شيوخ السخاوي الذي وصفهم بالتواضع ودون لهم سجايا حسنة أخرى الفقيه شهاب الدين أحمد بن محمد العميري (ت ٨٩٠هـ/ ٤٨٥م) وصفه بأنه: "كان حافظاً فصيحاً له مشاركة في كثير من العلوم معروفاً بالديانة لا يغتاب أحداً وإن وقع في مجلسه اغتياح منع منه... متواضعا حسن اللقاء كثير البشر عنده إكرام لمن يرد عليه..." (١٢٤) .

ومن الملاحظ على سير العلماء والمؤلفين المتواضعين ، أننا نجد في ثنايا معلومات تراجمهم التي أوردها من أرخ لهم صفات إيجابية لازمت وصاحبت التواضع، ومثل ذلك الكرم، والضيافة... ومساعدة الناس، وعدم الخوض والتدخل فيما لا يعنيههم ، وحب فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلاف ذلك نجد في تراجم المتكبرين على صفات سلبية مصاحبة للتكبر ، لا سيما الإيذاء ، وحب جمع المال على أي صفة كانت ، والتكالب على المناصب، والتواضع استجلب لصاحبه حب الناس ، أما التكبر فلم يحصد صاحبه إلا الكره والمقت وتمنيات الناس له بالأذى .

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث المعنون : التواضع عند المؤلفين والعلماء " يمكن أن نسجل أهم ما توصلنا إلية .

— اهتمام الرسول الكريم (ﷺ) بذكر فضائل التواضع وثوابه، ومثالب التكبر وعقوباته، حين صدر عنه (ﷺ) العديد من الأحاديث المشيدة بالتواضع المحذرة من التكبر .

— تركيز العلماء على توضيح معاني التواضع ، ولا سيما علماء اللغة منهم ، إذ فصلوا في التعريف بهما وتسجيل المعاني المرادفة .

— بروز ظاهرة التواضع والتكبر عند المؤلفين والعلماء ، وقد يعود السبب في ذلك فيما يتعلق بالتواضع الى تربيتهم العائلية، أو تأثرهم الايجابي والتزامهم بالأوامر والنواهي الدينية .

— أن الملاحظة المثيرة للدهشة في هذا الموضوع ، هو تصدر أخبار التواضع والتكبر عند القضاة أكثر من غيرهم من أقطاب السلطة كالوزراء مثلاً أو الولاة ، ولعل السبب في ذلك أن القاضي يكون على تماس بحياة الناس ويلتقي بهم بشكل مباشر خلافاً للوزير أو الخليفة والملك .

— لاحظنا أيضا اتصاف المتكبرين بصفات أخرى كالجشع وحب جمع المال ، والبخل وقطع رحم ذوي القربى وعدم إبداء المساعدة للآخرين في حين يقف على النقيض من ذلك المتواضعين ، إذ تجدهم في الأعم الأغلب أشخاص ايجابيون ، فهم

متعاونون، محبون لفعل الخير ومساعدة الناس ، ولاسيما الطلبة والفقراء والأيتام ، يصلون رحمتهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفي الغالب هم من الكرماء .

هوامش البحث

- (^١) الزراقي، جامع السعادات، ج ١/ص ٣١١ .
- (^٢) السبجاني، رسالة في التحسين والتقيح، ص ١٦٦ .
- (^٣) الأبيهي، المستطرف، ج ١/ص ٢٢٥ .
- (^٤) فيض القدير، ج ٤/ص ٣٦٦ .
- (^٥) المصدر نفسه والصفحة .
- (^٦) المصدر نفسه والصفحة .
- (^٧) ابن المبارك : هو عبد الله بن المبارك بن واضح ابو عبد الرحمن المروزي كان فقيهاً عالماً زاهداً محدثاً ثقة، له كتاب في الحديث الشريف (ت ١٨٠هـ) ينظر: ابن شاهين، تاريخ اسماء الثقات، ص ١٣ .
- (^٨) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ج ١/ص ٢٨٠ .
- (^٩) القتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص ٣٨٣ .
- (^{١٠}) مكيال المكارم، ج ١/ص ٤١٠ .
- (^{١١}) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤/ص ٢٨٩ .
- (^{١٢}) المصدر نفسه، ج ٢/ص ٢٧ .
- (^{١٣}) الزبيدي، تاج العروس، ج ٨/ص ١٠٥ .
- (^{١٤}) المصدر نفسه، ج ١١/ص ٢٧١ .
- (^{١٥}) القصص، آية ٨٣ .
- (^{١٦}) محمد جواد مغنبة، التفسير الكاشف، ج ٦/ص ٨٩ .
- (^{١٧}) الشعراء، آية ٢١٥ .
- (^{١٨}) الاسراء، آية ٢٤ .
- (^{١٩}) ابن أبي شيبة، المصنف، ج ٨/ص ١٩٢ .
- (^{٢٠}) الشيخ الطوسي، الأمالي، ٥٦ .
- (^{٢١}) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٦/ص ٣٥٣ .
- (^{٢٢}) الحاكم النيسابوري، المستدرک، ج ٤/ص ٣١١ .
- (^{٢٣}) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٦/ص ٣٥٣ .
- (^{٢٤}) العيني، عمدة القاري، ج ٢١، ص ٧٣ .
- (^{٢٥}) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج ١/ص ١٤١ .
- (^{٢٦}) نهج البلاغة، ج ٤/ص ٩٥ .
- (^{٢٧}) الغزالي، احياء علوم الدين، ج ١١/ص ٣٠٦ .
- (^{٢٨}) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٤/ص ١٥٠ .
- (^{٢٩}) الليثي، عيون الحكم، ص ٤٧٥ .
- (^{٣٠}) الليثي، عيون الحكم، ص ٥٨٠ .
- (^{٣١}) ابن فهد الحلبي، عدة الداعي، ص ٢٢٢ .
- (^{٣٢}) الغزالي، احياء علوم الدين، ج ١١/ص ٣٠٦ .
- (^{٣٣}) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٤/ص ١٥٠ .
- (^{٣٤}) نور الدين عتر، مقدمة كتاب تحقيق كتاب الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي، ص ٤٣ .
- (^{٣٥}) السمعاني، الأنساب، ج ٤/ص ٣٥٧ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧/ص ٤٢٩ .
- (^{٣٦}) ابن الجوزي ، المنتظم، ج ٧/ص ٢٧٩ .
- (^{٣٧}) المصدر نفسه والصفحة .
- (^{٣٨}) المصدر نفسه والصفحة .
- (^{٣٩}) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٣/ص ٤٠٠ .

- (٤٠) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢/ص ٦٩ .
- (٤١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١/ص ١٦٧٠، ج ٢/ص ٩٤٧، ١٠٤٢، ١٤١٧، ١٤٧١، ١٩٠٥ .
- (٤٢) سير أعلام النبلاء، ج ٧/ص ٥٦٣ .
- (٤٣) المصدر نفسه والصفحة، وأنظر أيضاً الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٣/ص ٢١٦ .
- (٤٤) الذهبي المصدر نفسه، ج ٨/ص ٣٢٨-٣٢٩ .
- (٤٥) الذهبي، سير أعلام، ج ٨/ص ٣٢٨-٣٢٩ .
- (٤٦) وهي بلدة قريبة من زجان بالجبال، خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣/ص ٢٨٩
- (٤٧) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج ٥/ص ١١١-١١٢ .
- (٤٨) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٦/ص ٢٢٨ .
- (٤٩) المصدر نفسه والصفحة .
- (٥٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٨/ص ٤٥٤ .
- (٥١) طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤/ص ٢٧ .
- (٥٢) سير أعلام النبلاء، ج ١٩/ص ٤٩١ .
- (٥٣) المصدر نفسه والصفحة .
- (٥٤) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٣/ص ١٨٩
- (٥٥) المصدر نفسه والصفحة .
- (٥٦) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٣/ص ١٨٩
- (٥٧) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٣/ص ٢٠٥ .
- (٥٨) الأنساب، ج ٢/ص ١٠٥ .
- (٥٩) المنتظم، ج ١٨/ص ٤٧ .
- (٦٠) طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧/ص ٣١٥-٣١٦ .
- (٦١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥
- (٦٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١/ص ٩٢٢ .
- (٦٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠/ص ٢٩٧-٢٩٨ ؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧/ص ١٥٠ .
- (٦٤) ذيل تاريخ بغداد، ج ٣/ص ٣٧ .
- (٦٥) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج ٣/ص ٣٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢/ص ٥١٤ ؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج ٧/ص ٢١١ .
- (٦٦) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج ٣/ص ٣٨ .
- (٦٧) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٣٩/ص ١٢٥ .
- (٦٨) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج ١/ص ٢٥٢ .
- (٦٩) المصدر نفسه، ج ٣/ص ١٩٩
- (٧٠) الذهبي، المختصر من تاريخ ابن الديلمي، ص ٢٠٥ .
- (٧١) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٣/ص ٣٩٢ .
- (٧٢) ابن الذمياطي، المستفاد، ص ٦٨ .
- (٧٣) ذيل تاريخ بغداد، ج ١/ص ٩٨ .
- (٧٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١/ص ٤٧٤ .
- (٧٥) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨/ص ٣٥٤ .
- (٧٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١/ص ٧٨-٨٨ .
- (٧٧) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٤/ص ١٣٣-١٣٥ ؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١/ص ٣٤٣ .
- (٧٨) الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٤/ص ١٣٤ .
- (٧٩) المصدر نفسه، ج ٤/ص ١٣٤ .
- (٨٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢/ص ٢٧٠-٢٧١ .
- (٨١) المصدر نفسه، ج ٢٢/ص ٣١٧-٣١٨ .
- (٨٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٤/ص ١٤٠٩ .

- (٨٣) الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٤/ص ١٨٦ .
- (٨٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٤/ص ١٤٧٧-١٤٧٨ .
- (٨٥) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١/ص ١٠٢ .
- (٨٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٤/ص ١٤٧٨ .
- (٨٧) المصدر نفسه والصفحة .
- (٨٨) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢/ص ٢٨٨ .
- (٨٩) الصقدي، الوافي بالوفيات، ج ١/ص ١٩٤ .
- (٩٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦/ص ١١٦ .
- (٩١) ابن فهد المكي، لحظ الألاحظ، ص ٢٢٩ .
- (٩٢) المصدر نفسه والصفحة .
- (٩٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥/ص ٢٠١-٢٠٢ .
- (٩٤) الكليني، الكافي، ج ٢/ص ٦٤٣ .
- (٩٥) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ٢/ص ٣٨ .
- (٩٦) الشيخ الصدوق، الخصال، ص ١٤٧ .
- (٩٧) المازندراني، شرح أصول الكافي، ج ١/ص ٣١٦ .
- (٩٨) الليثي، عيون الحكم، ص ١٢٤ .
- (٩٩) الضوء اللامع، ج ٨/ص ٩٥ .
- (١٠٠) المصدر نفسه، ج ٧/ص ١١١-١١٢ .
- (١٠١) المصدر نفسه، ج ٨/ص ٦٧-٦٨ .
- (١٠٢) المصدر نفسه، ج ٥/ص ٢٥٩-٢٦٠ .
- (١٠٣) الضوء اللامع، ج ٩/ص ١٥٢-١٥٣ .
- (١٠٤) المصدر نفسه، ج ٤/ص ٣٣٣-٣٣٤ .
- (١٠٥) المصدر نفسه، ج ٤/ص ٦٢-٦٣ ؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١/ص ٣٦٩ .
- (١٠٦) المصدر نفسه، ج ٤/ص ٦٣ .
- (١٠٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٩/ص ٢٤٧-٢٤٨ .
- (١٠٨) المصدر نفسه والصفحة .
- (١٠٩) المصدر نفسه، ج ٥/ص ١٥٣-١٥٤ .
- (١١٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥/ص ٢٩٢-٢٩٣ .
- (١١١) المصدر نفسه، ج ٥/ص ٢٩٢-٢٩٣ .
- (١١٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٩/ص ٩٤-٩٥ .
- (١١٣) الزركلي، الأعلام، ج ٢/ص ٣٣٢ .
- (١١٤) الضوء اللامع، ج ٦/ص ٥٨ .
- (١١٥) المصدر نفسه والصفحة .
- (١١٦) المصدر نفسه، ج ٦/ص ٥٩ .
- (١١٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣/ص ١٢١-١٢٢ .
- (١١٨) المصدر نفسه، ج ٣/ص ١٢٢ .
- (١١٩) المصدر نفسه، ج ٥/ص ٣٦ ؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١/ص ٧٦١ .
- (١٢٠) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٥/ص ٣٧ .
- (١٢١) الضوء اللامع ج ٤/ص ٤٢ .
- (١٢٢) المصدر نفسه، ج ٤/ص ١٢٤-١٢٥ .
- (١٢٣) الضوء اللامع، ج ١٠/ص ٢٤٤-٢٤٥ .
- (١٢٤) المصدر نفسه، ج ٢/ص ٢٠٣-٢٠٤ .

قائمة المصادر والمراجع

خير ما يبدأ به القرآن الكريم

أولاً: المصادر

- الأبيشي، محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٢م)
- ١. المستطرف في كل فن مستظرف، دار مكتبة الهلال (دم - د.ت)
- الإمام علي، علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ/٦٥٦م)
- ٢. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ط ١، دار الذخائر، (قم - ١٤١٢هـ)
- ٣. تفسير التستري، ط ١، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٤٢٣م).
- ابن تغر بردي، ابو المحاسن يوسف جمال الدين (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :
- ٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، (القاهرة - د.ت) .
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) :
- ٥. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٩٩٢م) .
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م) :
- ٦. الجرح والتعديل، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد الدكن ١٩٥٢م) .
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله بن حمدويه (ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م) :
- ٧. المستدرک على الصحيحين، تحقيق: يوسف المرعشي، (دم - د.ت) .
- ٨. خزائن الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث للطبوعات (بيروت - د.ت)
- الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد الدمشقي (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)
- ٩. الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت - د.ت)
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) :
- ١٠. تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٩٩٧م) .
- الدميطي، أحمد بن أيك بن عبد الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
- ١١. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٩٩٧م)
- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) :
- ١٢. التواضع والخمول، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط ١، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٨٩م) .
- الذهبي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) :
- ١٣. تذكرة الحفاظ، دار احياء التراث، (بيروت - د.ت) .
- ١٤. سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف ومحي هلال السرحان، ط ٩، مؤسسة الرسالة، (بيروت - ١٩٩٣م) .
- ١٥. المختصر من تاريخ ابن الدبيشي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٩٧م) .
- الزبيدي، السيد مرتضى الحسيني اليماني (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) :
- ١٦. تاج العروس في شرح القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر (بيروت - ١٩٩٤م)
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :
- ١٧. طبقات الشافعية، محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار احياء الكتب العربية، (القاهرة - د.ت) .
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :
- ١٨. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط ١، دار الجيل (بيروت - ١٩٩٢م)
- السمعاني، ابو سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) :
- ١٩. الأنساب، ط ١، دار الجنان، (بيروت - ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .
- الشيخ الصدوق، أبو عبد الله جعفر بن محمد (ت ٣٨١هـ/٩٩١م)
- ٢٠. عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، تحقيق: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي (بيروت - ١٩٨٤م)
- ٢١. الخصال، مؤسسة النشر الإسلامي (قم - ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) .
- الصفدي، الخليل بن أيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :
- ٢٢. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي - (بيروت - ٢٠٠٠م) .
- العيني، بدر الدين محمود (٨٥٥هـ/١٤٥١م) :
- ٢٣. عمدة القارئ في شرح البخاري، دار احياء التراث العربي (بيروت - د.ت)

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١٠٢١م)
- ٢٤. إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي (بيروت - دت)
- ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد المكي (ت ٨٧١هـ/٤٦٦م) :
- ٢٥. لحظ الألاحظ بذيل طبقات الحفاظ، ط١، دار احياء التراث العربي (بيروت - د.ت)
- ابن فهد الحلبي، جمال الدين أحمد (ت ٨٤١هـ/٤٣٦م)
- ٢٦. عدة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق: أحمد الموحدني (قم - د.ت)
- الفيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى (ت ١٠٩١هـ/١٦٨٠م) :
- ٢٧. المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٢، دفتر استشارات إسلامي (قم - د. ت)
- الكتبي، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٧٦٤هـ/٣٦٢م) :
- ٢٨. فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد يعوض الله، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٠م)
- الليثي، علي بن محمد الواسطي (ت ٦هـ) :
- ٢٩. عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسيني، ط١، دار الحديث للطباعة والنشر (قم - د. ت)
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :
- ٣٠. لسان العرب، نشر ادب الحوزة، (قم - ١٤٠٥هـ).
- ابن النجار، محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)
- ٣١. ذيل تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٩٧م)

ثانيا : المراجع

- الأصفهاني، ميرزا محمد تقي (١٣٤٨هـ/١٩٢٩م)
١. مكيال المكارم، تحقيق: السيد علي عاشور، مؤسسة الأعلمي للطبوعات (بيروت - ١٤٢١م) .
 - الزركلي، خير الدين :
 ٢. الأعلام، دار الملايين (بيروت - ١٩٨٠م) .
 ٣. المنطق، مؤسسة النشر الإسلامي (قم - د.ت)
 - المرعشي، السيد النجفي
 ٤. شرح أحقاق الحق، ط١، منشورات المرعشي (قم - ١٤١٥هـ)
 - الزراقي، ملا محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ)
 ٥. جامع السعادات، تحقيق: محمد كلانتر ، دار النعمان للطباعة والنشر (النجف الأشرف - د.ت)